مجلة أنثروبولوجيا ISSN: 2437-041X
مجلد: 07 عدد: 02 السنة: 2021 E-ISSN:2588-2325

الطب الشعبي وممارسته على الأطفال الصغار من قبل الأمهات في ولاية بجاية.

Folk medicine and its social practice on young children in Bejaia.

عجيسة ليدية*، المخبر المتعدد التخصصات في علوم الإنسان والبيئة والمجتمع.

جامعة أكلي محند أولحاج البويرة، l.adjissa@univ-bouira.dz .

زعـاف خالد، جامعة أكلي محند أولحاج البويرة، k.zaaf@univ-bouira.dz.

تاريخ الإرسال: 2021/09/21 تاريخ القبول: 2021/10/13 تاريخ النشر: 2021/12/10

ملخص:

نتطرق في دراستنا الميدانية إلى إبراز أهم الطقوس الاجتماعية المتعلقة "بالطب الشعبي للأطفال الصغار"، وما يرتبط بهذه الممارسات من اعتقادات وأساطير مختلفة؛ عادة ما يكون مصدرها الدين والسنة ومن جانب أخر الشعوذة وعالم الغيب. حيث تمثل مجتمع الدراسة من سكان ولاية بجاية، أما العينة المختارة بطريقة عشوائية فقد شملت بعض أمهات لأطفال دون سن الثالثة، أجريت معهن مقابلات نصف موجهة وملاحظة بالمشاركة لوصف كيفية القيام ببعض الطقوس المتعلقة بالطب الشعبي وكيفية ممارستها.

كما تم الاستعانة بعينة ثانية تمثلت في مختلف المختصين في الطب الشعبي الذين يحضون بمكانة كبيرة ومقدسة من قبل المعتقدين ببركتهم وبرهانهم ومستهلكي طقوسهم ورموزهم حتى يتم تناقله ويعاد إنتاجه أليا من قبل الجيل الصغير إلى يومنا هذا، إلى جانب الأئمة والمختصين في الحجامة والرقية الشرعية، كذا المختصين في الطب الحديث، لهدف التوصل إلى النظرة الحديثة لمثل هذه الممارسات التقليدية من جهة، والتعرف على فائدتها الطبية كموروث ثقافي ذات وزن وقيمة من جهة أخرى.

الكلمات المفتاحية: الثقافة الشعبية، الطب، الممارسات، المرض، الأعشاب.

* المؤلف المرسل

Abstract:

in our field study, we discuss the rituals related to folk medicine, beliefs and legends associated with these practices, which are usually sourced from religion, on the one hand, and hand sorcery and the unseen, on the other. The population of the study included the residents of Bejaia, and included a randomly selected sample of mothers of children under the age of three and a second sample drawn from the various folk medicine specialists, who enjoy a great and sacred status by those who believe in their blessings, proof and consumers of their rituals and symbols until it is transmitted and reproduced automatically by the young generation to this day, along with the imams and specialists in cupping and legal ruqyah. The third sample of the study was drawn from specialists in modern medicine, with the aim of reaching the modern view of such traditional practices and recognizing their medicinal usefulness as a cultural heritage.

Keywords: Popular culture, Medicine, Practices, Disease, Herbs.

مقدمة:

لا تزال العديد من المجتمعات رغم تحضرها وبلوغها لمستوى رقي وعلم معين، بما تمتلكه من وسائل ومنافع، تعبر بفعلها الاجتماعي عن كل ما هو تقليدي قد يصل إلى درجة فرض هيمنته وأولويته على كل ما هو علمي ومتطور، إلى درجة الصراع بين ما هو حديث مكتسب تبعا للتطور العلمي والعولمة، وبين ما هو تقليدي وشعبي موروث وينتقل من جيل لأخر عبر عملية التنشئة والتربية المجتمعية خاصة الأسرة والبيئة الجغرافية التي ترعرع فيها الأفراد، فيتناقض شكل المجتمع حاليا بمضمونه على أساس رواسب اجتماعية تقليدية ومتوارثة، أبت أن تركع للحاضر وما لديه من هيمنة ثقافية وعلمية، والأغرب من ذلك أن الاعتقاد ببرهان وقداسية تلك الممارسات التقليدية، يجعل أفراد المجتمع لا يتقبلون أي نوع من التقدم والعلم، ولا يزالون يقرون ويعتقدون أن أفعالهم الاجتماعية أقوى وأجدر أمام التطور الحديث (في المجال الطبي)، الذي يجمع بين ما هو سلبي وايجابي على نفسيتهم وقيمهم وثقافتهم على السواء، ومن هنا كان لهذه الجماعات أن تتقمص أشكال وهندام معاصر في جوانب عديدة من حياتهم، مثل اللباس و البناء والأعمال والاهتمامات، وتتشبث بعمقها الأصيل بطرق تفكير تقليدية وأساليب تربية ومعتقدات

دينية وأساطير خرافية تلعب دور نفسي واجتماعي بالغ، لم يستطع العلم الحديث أن يحقق لها إشباعا معين، وتعتقد من خلالها أنها السبيل وذات تأثير ايجابي على صحة الأفراد وتماسك العادات والجماعات وعلى نمو الأولاد.

الإشكالية:

من هذا المنطلق جاءت دراستنا الحالية للوقوف على الأسباب التي جعلت بعض المناطق في مدينة بجاية في الجزائر، تتمسك بأفعالها التقليدية المتعلقة بالطب الشعبي وما يرتبط به من اعتقادات وطقوس غيبية، كثيرا ما تمارس من قبل أهم المواهب والاختصاصات عادة ما تجهل مصادر الخبرة والتجربة لديهم، وجدوا في الأطفال الصغار والناس الكبار على السواء مصدر لتمرير ثقافتهم المتعلقة بالموروث الطبي التقليدي، باستخدام أعشاب ونباتات معينة طبيعية يستدعي منهم معرفة كميتها ونوعيتها والتفريق بين السامة والنافعة من خلال التجربة والمعايشة، فيعتقد الأفراد بأنها ذات نتائج فعالة خاصة على نمو الأطفال وراحتهم واستبعاد الشرور والآلام على نفسيتهم وروحهم وجسدهم.

ولنتوصل إلى تحليل الظاهرة المدروسة والتحقق من الأهداف التي تم تحديدها، والتعرف على الدور الاجتماعي والنفسي لهذه الممارسات التقليدية في ظل مجتمع يعرف نقلة نوعية نحو العلم والعصرنة، اعتمدنا في دراستنا على الوصف الموضوعي للطقوس المرافقة للطب الشعبي التقليدي الممارس على الأطفال، معتمدين في ذلك على المنهج الأنثروبولوجي مستعملين الملاحظة بالمشاركة والمقابلات النصف الموجهة، كذا التسجيل الفوتوغرافي كأدوات لجمع البيانات المتعلقة بالموضوع المعالج.

حيث تمثل مجتمع الدراسة في سكان مدينة بجاية، وتم اختيارنا بطريقة عشوائية لمجموعة من الأمهات لديهن أطفال مرضى دون سن الثالثة سنوات، المتواجدات في مستشفى المراد المكي جناح الأطفال الصغار، في منطقة بوخافة، أميزور ولاية بجاية. حيث دامت دراستنا الميدانية مدة عشرة أيام في الفترة الممتدة من 12 ديسمبر 2020 إلى غاية يوم 21 ديسمبر 2020. ومن منطلق ذلك تم وضع مجموعة من التساؤلات التي ستحاول هذه الدراسة التوصل إليها من خلال المشاركة والوصف المباشر ومنها: ما هي أنواع الطب التقليدي الممارس على الأطفال من طرف العائلات البجاوية؟ ما هي الوظائف الكامنة اجتماعيا وراء هذه الممارسات في ظل مجتمع عصري وحديث؟ ولما تزال العائلات البجاوية تتقيد بها رغم ما توصل إليه الطب الحديث من نتائج مبهرة وأكثر علمية؟

1. الموروث الثقافي الشعبي للمجتمعات:

1.1. الثقافة الشعبية (التقليدية)، والثقافة العلمية (المادية):

من بين أهم المواضيع التي جذبت اهتمام كبار الباحثين والعلماء في مجال علم الاجتماع هو مصطلح: ""الثقافة" والتي عبر عنها أول عالم أنثروبولوجي "إدوارد تايلور" في كتابه الثقافة البدائية 1871 Culture Primitive ب: " ذلك المركب الذي يشمل المعرفة والمعتقدات والفن والأخلاق والقانون والعادات وكل القدرات والعادات الأخرى التي يكتسبها الإنسان بوصفه عضوا في المجتمع." (دنيس كوش، 2007، الصفحات 30-31) أي كل المعارف والتقاليد والمعتقدات في جانبها الشعبي البدائي التي تفسر حسب منطلق اللاهوت أو الخرافة أو الأساطير أحيانا، ومن جهة ثانية تلك المعارف الجديدة، القيم والمحاصيل المكتسبة تبعا للتربية والاحتكاك، التقليد أو العادة، كذا التطور العلمي، والتي يمكن ملاحظتها وتفسير من خلالها حركة المجتمع، طبيعته ومدى تطوره من خلال المعتقدات والممارسات والأفعال الاجتماعية التي تعكس الموروث الشعبي في جانبه التقليدي أو الشعبي والحديث.

وإن كان الجانب العلمي والعولمة لثقافة المجتمعية حاليا، تكاد تتجه نحو الانحصار والتشابه التام بين مختلف المجتمعات، تبعا لتطور الاختراعات الحديثة والمعارف المتداولة والمشتركة في مواضيع علمية مختلفة، إلا أن هناك بعض الجوانب الشعبية والتقليدية في الثقافة التي لا تزال تحدد وتميز المجتمعات وتحدد هوية الأمم وأصولها. " لهذا السبب نجد مثلا الثقافة التقليدية تتميز بما تنتجه من تصورات حول الصحة والمرض، تظهر خاصة في استعمال الطب التقليدي والتداوي بالأعشاب وغيرها من الممارسات: كاللجوء للسحر والشعوذة والطلاسم والكتاتيب، ونجد الثقافة العلمية التي تركز في إنتاجها على المعرفة والعلم والتقنيات المادية، فتتجه إلى الطب السريري الحديث عند التداوي والمعالجة، مما يعني أن هناك تنوعا في المعلومات التي يكتسبها الإنسان في كيفية إدراك المرض والمعالجة منه بتنوع المجتمعات والثقافات والمرجعيات" (فطاس أحمد و قويدر بن أحمد، 2018، الصفحات 09-10).

1.2. ماهية الطب الشعبي (التقليدي):

تعرف منظمة الصحة العالمية الطب الشعبي: "بأنه يشير إلى الطرق والوسائل التي وجدت قبل ظهور الطب العلمي الحديث". (منظمة الصحة العالمية، صفحة 07) لذلك اهتمت العديد من المنظمات والمؤتمرات العالمية الحديثة بهذا النوع من الممارسات الاجتماعية التقليدية الموروثة لدرجة سعت إلى البحث عن إستراتيجيات فعالة لتشجيعه وجعله تحت المراقبة العلمية، باعتبار أن له أدوار وفوائد علمية وكذا اجتماعية فعالة وناجعة. "ففي المؤتمر الدولي لبلدان جنوب شرقي آسيا حول الطب التقليدي (الشعبي)، والذي عقد في شباط/فبراير 2013، أعلنت الدكتورة مارغريت شان، المديرة العامة لمنظمة

الصحة العالمية أن الأدوية العشبية التي ثبتت جودتها ومأمونيتها ونجاعتها تسهم في تحقيق ضامن حصول كل الناس على الرعاية اللازمة، وتعتبر الأدوية العشبية، والمعالجة الشعبية، والممارسون التقليديون (الشعبيون) المصدر الرئيسي للرعاية الصحية، بالنسبة لملاين البشر.. فهي رعاية قريبة من البيوت ويمكن الحصول عليها بسهولة ولا تكلف الكثير". (منظمة الصحة العالمية، صفحة 16) أما محمد الجوهري: "فيرى بأن الطب الشعبي هو عنصر من عناصر المعتقدات الشعبية، وله أهمية كبيرة خاصة في المجتمعات القروية، وهو وثيق الصلة بعناصر المعتقدات السحرية، من حيث أسباب العرض وطرق علاجه، ويرتبط بمصادر البيئة المحلية من حشائش وأحجار". (محمد الجوهري، 1978، الصفحات 181-182) حيث لقد "دفع الاعتقاد في الأرواح الشريرة الناس خاصة الأطباء الكهنة إلى تجهيز عقاقير كثيرة من مواد تعافاها النفس البشرية وتعافاها الأرواح الشريرة كما يزعمون، فتناول الإنسان المريض تلك الأدوية الغريبة ذات الرائحة الكريهة أو الطعم يصيب بالقذف والغثيان، فإن الروح البشرية تجزع بدورها وتخرج من جسم المريض مضطرة مبرئة الإنسان من مرض". (حاتم العبيدي، 1444هـ، 2019م، صفحة 75) كما أن هناك من "استخدام العسل والبصل لتداوي وجذور هذه الممارسة قديمة، لقد نشأت تلك الفترة من ارتباط بعض الأمراض بجن أو عفريت أو روح شريرة، وفي ذلك تقول أحد البرديات المصرية القديمة: مخاطبة الروح التي لبست الجسد فأصابته بالشر" (حاتم العبيدي، 1444هـ، 2019م، صفحة 74) وهناك فريق أخر يعطي للطب الشعبي بعدا وتفسيرا دينيا، فالمعتقد الديني عند البعض يلعب دور بالغ في ممارسة طقوس دينية مختلفة لأجل الشفاء وإبعاد الهلاك على الأطفال والمرضى بصفة عامة خاصة في المجتمعات الإسلامية، حيث أن ".. إذ يسود في المجتمعات الإسلامية ظاهرة الدعاء للمريض في المسجد بعد الصلاة ليشفى خاصة يوم الجمعة، وقد تنذر الأسرة نذرا لله عندما يتحقق الشفاء". (هاجر بغالية، 2017، صفحة 108) كنوع من أنواع الطب التقليدي الممارس على الأفراد باختلاف أعمارهم في المجتمعات العربية والغير العربية.

2. أنواع الطب الشعبي في الجزائر:

2.1. الحجامة:

يعود أصل الحجامة، كتقليد عربي وجزائري على وجه الخصوص إلى إحياء وتطبيق السنة النبوية، وتستخدم عادة في علاج حالات الصداع المزمن، وألام المفاصل والروماتيزم وجميع أعضاء الجسم المختلفة التي قد تعود من ألم أو تورم كالأرجل والأقدام والرقبة والرأس، كما تستخدم الحجامة أيضا في علاج ضغط الدم، تنميل الأطراف، وارتفاع الكولسترول. كما أكدت الأبحاث والدراسات الميدانية الحديثة

خاصة الغربية المهتمة بهذا الجانب، عن المنافع الجمة لعملية الحجامة على صحة الإنسان، وإخراج الدم الفاسد من الجسم الذي يؤول إلى شفاء المريض من ألامه وعلته لا محالة.

2.2 الرقية الشرعية:

يستخدم سكان منطقة الجزائر عامة، وسائل لتهدئة الإنسان، ودفع العين والحسد وتخليصه من السحر والمس الذي قد يصيبه من العوالم الأخرى (جن أو شيطان)، عن طريق الرقية الشرعية بغرض الحماية والوقاية والسعي إلى الشفاء، وهي مجموعة من الآيات القرآنية المنزلة في القرآن الكريم، وأخرى أدعية في السنة النبوية الشريفة، يستخدمها المسلمين لعلاج ما قد يتعرضون له من أمراض أو يتوقعونه من سوء في حياتهم وعملهم وزواجهم وأولادهم. ويعتقد الجزائريين خصوصا والمسلمين عموما، اعتقادا تاما بالدور العظيم لهذه العملية على فلاح الإنسان وإبعاد الشرور عليه، والتالي فهي تلعب دور نفسي واجتماعي عظيم في تهدئة النفس والتقرب لله، ثم الإحساس بالطمأنينة والراحة والشفاء من الهلاك.

2.3. مداواة أمراض الرضع:

في المجتمع الجزائري، العديد من الأهالي معروفة بوجود شيخ أو عجوز سواء كان ذكر أو أنثى، لديهم الخبرة التامة المتوارثة من قبل أجدادهم، في كيفية معالجة أمراض الأطفال الصغار، أمثال انتفاخ بطن المريض، غازات بطن الطفل الصغير، نحف وعدم نمو الطفل الصغير، خروج الحبوب وتقشر جليدي للطفل الصغير، إنبات الأسنان للطفل الصغير، قطع بكاء وخوف أطفال الصغار، إبعاد الحسد وتخليص الطفل الصغير من العين، علاج الاصفرار في لون جسد طفل الصغير (الصفار، الصفير، الصاوراغ)، إلى جانب علاج الحصبة. هذه التقاليد الاجتماعية التي عادة يمارسها الكبار والصغار من مختلف مناطق الجزائر، من مثقفين وأميين، كونها من العادات والتقاليد التي تستدعي ضرورة إحضار عجوز ذات خبرة في مرض معين، ورثت موهبة لتداوي من أجدادها، بدلا من حمله على الأطباء والعيادات المعاصرة، فمن جهة تكريسا وتقديسا لتلك الطقوس والأعشاب والمستحضرات على حياة ووقاية الطفل، ومن جهة ثانية فرصة استبعاد الطفل الصغير من مؤثرات الإبر والأدوية الغير الطبيعية أو الكيميائية الحديثة.

2.4. الشعوذة والتكهن:

يمكن اعتبار هذا النوع من التقاليد والعادات التي استفحلت في الماضي والحاضر كممارسة واعتقاد اجتماعي، كنوع من الإيمان بسلطة القوى الغيبية (الجن) على حياة الإنسان، وتعقبه للإنسان في حياته وأولاده و أعماله، و إن كان منطلق الفكرة أو الأسطورة هي الدين الذي يؤمن به غالبية المسلمين

وسكان الجزائر أيضا، والذي أكد على تعقب وتربص الجن واستراقه للسمع و حمله للأخبار والغيب وإحالاته إلى الهلاك الأفراد وتعطيل أمورهم، هذا ما يدفع العديد منهم إلى الاعتقاد إلى أن سبيل الحصول مرضاته هو استبعاد شره ومكيدته، لهذا تجد الكثير من الأفراد يزورون السحرة والروحانيين ويعتقدون بالسحر والتمائم في استبعاد الأمراض وقضاء الحاجات.

3. الطب الشعبي والطفل الصغير في ولاية بجاية:

أثناء تواجدنا في مستشفى المراد المكي بلدية بوخالفة، دائرة أميزور ولاية بجاية، تحديدا في جناح الأطفال، دخلنا بمساعدة إحدى الممرضات لإجراء مقابلة مع النساء الماكثات مع أطفالهن المرضى في إحدى الغرف، كانت هناك سيدتين الأولى أم لطفلة، والأخرى أم لذكر، وعند إجراء بعض المقابلات توصلنا إلى ما يلي:

3.1. مرض العائلة المتوارث:

كانت السيدة الأولى امرأة في العقد العشرينيات، من منطقة شبه حضرية (قرية)، ابنتها التي في شهورها الأولى؛ غير قادرة على الحركة، لا تقوى على رفع رقبتها، صفراء وشاحبة اللون، وتقول السيدة: أنها فقدت طفلها الأول بسبب هذا النوع من المرض، وهو مرض عائلي متوارث حيث عادة يمرض طفل من العائلة باعتبار أن أهله التقليديون، كانوا يمارسون نوعا من الطقوس على جسد الطفل، وأثناء عدم ممارستها لطفلهم الجديد، تجده مريض (Yodhan)، يبكي (Iterou)، ويضيق نفسه؛ الديقان (Idhak) أي يختنق، ويتنفس بصعوبة، وإن تعطل لم يقدم له نفس الأعشاب التي كانوا أجداده تمارس عليه سيفقد حياته".

حيث فقدت السيدة طفلها الأول لأنها لم تمارس عليه هذه الطقوس، أين كانت تجهل أن عائلتها كانت تقوم بمثل هذه الأشياء على جسده عند ولادته مباشرة، وهو حسب تصريحات السيدة: "روح شريرة تتابع وراثيا جميع أفراد العائلة لضرورة ممارسة وإحياء أعراف الأجداد في كيفية استقبال الطفل، وإلا أصابتهم الروح بالسوء كما ترون. فعند إنجابي لطفلي الأول قمت له بالعقيقة والملزوم كما في عادتنا، إلا أني لم أكن أعرف أن عليا بوضع أعشاب معينة حتى لا تتقرب منه الأرواح الشريرة، وبقى يتنفس بصعوبة ويتغير لونه وشكله وحجمه بشكل مرهب ومخيف حتى فقد حياته، وحتى في لحظة موته ولحظة دفنه، لم يخبرني أحد بسبب موته، بعد أن عجز جميع الأطباء على علاجه. أما بالنسبة لهذه الصغيرة فقد سمعت مؤخرا بعد أن كررت قصة طفلي للكثير من نساء القرية، أن المرض لم يكن يحتاج إلى عيادة أو طبيب، بل

عليا التعرف عن ما هي العادات التي كان أجداد الطفل يمارسونها حتى نقوم بها ولا يقترب مكروه من الطفل".

وهل وجدت تحسن مباشرة بعد أن قمت بممارسة هذه الطقوس على الطفلة؟ "نعم مباشرة، عادت الحياة إلى طفلتي، توقفت على التنفس بتلك الطريقة المتقطعة، وأصبحت تتنفس بشكل طبيعي، وتوقفت على البكاء والشهق (Askhanfathe) بتلك الطريقة الأولى، وباعتبار أنني أطلت تقديم العلاج إلى غاية ما المرض أهلكها كليا وأضر جسدها، فعليا الاستعانة بالطب في المستشفى لتقديم بعد الأدوية الحيوية والفيتامينات كذا المصل كي تستعيد نشاطها قريبا".

إذن أي طفل مولود في منطقتكم على الأهل أن يمارس مثل هذه الأشياء وإلا فقد حياته؟ لتجيب السيدة ب: "لا هذاعادات عائلية، فكل عائلة تقوم بوضع أعشاب خاصة بها، وإن لم تقم بها سيحدث مكروه للطفل، فهناك من يضع عشبة أمذاغ (Amadhagh)، وهناك من يضع ثيشراط فقط Thicherat ويخرج القليل من الدم، وهناك من يضع القطران (Lkatran) ليشمه الصغير هذا يكفي، وهناك عائلات أخرى تمارس أشياء مختلفة، المهم أن ليس ما على ممارسته على طفلتي فعلى جاري أيضا ممارسته على ولده. إلا أنه في نفس الوقت مرض متناقل بين الأطفال، فيمكن أن ينتقل من طفلي إلى طفل هذه السيدة التي بجانبي، لأن المرض الساكن جسد طفلتي مثلا يلتصق بأي طفل أمامه عندما يواجهه الأهل خاصة بمثل هذه الطقوس والأعشاب، فهرب المرض أو الروح من جسد المريض ليلتصق في جسد طفل لم يمارس أهله عليه هذه الطقوس، وحتى وإن كان أجداده لا يمارسون هذه الأشياء، من ثم تستدعي الضرورة، إجراء نفس الأعشاب على الطفل الأخر حتى تخرج الروح منه أيضا، بعدها يصبح المرض وراثي بعد انتقاله إلى طفل أخر، حيث على هذا الطفل مثلا الذي انتقل له المرض من قبل طفلي ومارس نفس الطقوس التي نمارسها على المرض كي يخرج، يبقى المرض ينتقل عبر أولاده وأحفاده جيل بعد جيل، وعلى الأهل ممارسة نفس الطقوس التي مارست على الأب أو الأم وإلا أصيب أولادهم في المستقبل بسوء".

3.2. مرض طير الليل أو حمار الليل عند البعض، أو الخفاش عن طريق الحجامة التقليدية "ثيشراط" Thicherat:

هو عبارة عن مرض غريب يصيب الطفل الصغير في حالة خروجه أو تواجده في فترة ما بعد العصر والمغرب خارج المنزل، أثناء إنباته للأسنان الأولى (Ma Dissamghaye Thoghmasse Thimzwora) حيث يمرض الابن، لغاية أنه يكون غير قادرا على رفع رأسه (رأسه ثقيل) (Izaye Okroyisse)، ولا يستطيع تحريك ذراعه (Oyzamrara Adiharak Afoussisse)، ويفقد الكثير من وزنه، كذا وضع بطنه على الأرض باستمرار (Adisroussoy Ta3boutisse Dakssar)إلى جانب التقيؤ (Aditara)وهذا ما حدث لابن السيدة

الثانية البالغ من العمر عام وثمانية أشهر، التي وجدت لفترة أكثر من أسبوع في المستشفى بدون أي تحسن. بعدما سمعت الأم طيمة لنوعية الأمراض التي تصيب الصغار، وحيث تم التوصل من قبل أراء النساء أن ابنها بمثل هذا المظهر يكون مصاب بمرض "طير الليل" (Thaytite Eyite)، خرجت بسرعة من المستشفى، لتتصل بزوجة عمها وتوصف لها مرض الصغير، وأنها قامت بإخراجه منذ عشرون يوم مع أذان العصر إلى الشارع، كما أنه لم يبلغ سنه العامين بعد، لتأكد لها زوجة العم أمامنا أنه ليس مرض يحتاج إلى أطباء ومستشفى وعليها أن تحضره إياه بسرعة قبل أن يفقد حياته.

بعد نصف ساعة فقط من وصولنا إلى بيت العائلة لطيمة، وصلت زوجة عمها وهي امرأة في العقد الستينات، حاضرة معها مجموعة من العطور والأعشاب المكونة من: عشبة مرويث (Merouyeth)، شفرة موس حلاقة جديدة، القطران (Lkteran) والكحل الحجري أسود اللون (D'abarkan w'ouvlate Lkehoul).

أخذت الزوجة الطفل الصغير بعد أن وضعت كمية ماء دافئ وقامت بغسله كليا، أشبه بطريقة الوضوء، وبعد أن أفرغت من اغتساله وجففته بشكل جيد وضعته عاريا عند مدخل باب الغرفة، ووجهته نحوى القبلة (قبلة الصلاة)، ثم أخذت الشفرة الجديدة ووضعت جرح خفيف على أنفه وأخرى على سرته ووراء أذنيه كنوع من الحجامة التقليدية، ثم وضعت مادة أو عشبة المرويث التي كانت الأم فطيمة تقوم بمضغها جيدا، إلى غاية خروج منها مائها، ثم قامت زوجة العم بتقطير الماء بقطعة من القطن في أنف الصغير لتعطيسه (Adhi3tasse) بإدخال ثلاث قطرات في حلقه، ثم توضع عشبة المرويث مطلية بالقليل من مادة القطران والكحل هذه الجروح، مع تكحيل له عينه.

استطاع الطفل الصغير أن يرفع رأسه لأول مرة بعد 15 يوم مكثهم في المستشفى، كما رفع يده ومدها لالتقاط بلون صغير على يمينه، بعدها قالت لنا أمه: " لم يكن يأبه لا للأكل ولا اللعب ولا الضحك ولا أي شيء"، ومجددا استطاع أن يبادل أمه النظرات والابتسامة، من ثم بكت الأم من الفرح لتقول مجددا: "استعدت ابني لو مكثنا في المستشفى زيادة لا كان ميت الآن".

4. أراء مختلفة حول مرض الأطفال الصغار:

4.1. رأي الرجال والآباء ومقارنتهم بآراء النساء والأمهات:

الأب علي '(أب الطفل يويو) كان أكثر صرامة في أن يتقبل تفسير نساء العائلة، حيث حلل لنا الأمر بأن: ' 'شفاء الابن كون الدواء الطبي بما فيه المصل والفيتامينات من أعطى مفعول على جسد ابنه بعد مدة خمسة عشر يوم مكثها في المستشفى، مثل هذه الأعشاب غير قادرة على شفاء ابنه".

4.2. لكن الجدة؛ أم الأب علي: (جدة يويو):

تؤكد، أنها أعشاب حقيقية ومفيدة، وأنها طببت جميع أولادها من هذا المرض وغيرها بهذه الطريقة، قبل وجود الطب الحديث. وأن هناك العديد من الأمراض التي يصاب بها الطفل الصغير ويقومون بمعالجتها بمثل هذه الطرق، وأن مرض طير الليل حقيقة، فلا يجوز إخراج الطفل الصغير في مثل هذا الوقت المتأخر، لأنه وقت خروج الجن والشياطين، فيتعقبون الأطفال الصغار الضعفاء، فيصيبونهم بسوء، وتقول أيضا في السابق كن نحن من يشرف حتى على عملية الإنجاب، ويخرجن الأطفال من بطن أمهاتهم، فنقطع الحبل السري، ونغسل الطفل، ونقمطه، ونقدم الأكل الصحي للأم حتى تتعافى وتسترجع قواها، كما قالت أن هناك أناس من عائلتهم معروفون ب مداواة الأطفال من العديد من الأمراض وذكرت لنا:

4.2.1. مرض الصوراغ لطفل الصغير: تحول عادة لون الطفل الصغير إلى أصفر، واللون الأصفر عند سكان القبائل يسمى بأوراغ (Awragh)،فسمي المرض تبعا للون ب (Ssawragh)، الذي أكتشف من الطب الحديث اليوم بأنه نوع من الأنيميا (نقص الدم)، إلا أن سكان بجاية لديهم طرق شعبية في مداواتهم من قبل أهل الاختصاص من العجائز الذين ورثوا تلك الخبرة من قبل الأجداد، فيأخذون الطفل الصغير إليهم، ويقدم لهم العجوز وصفة مستحضرة من الأعشاب، من بينها، شرب قطرة من عشبة "أمذاغ" (Amadhaghe)، بتقطيره بالقطن عن طريق فم الطفل، كما يقدم له خليط من العسل، وعسل التمر، إلى جانب عصير ثيدكث (Thidketh)، وهي حبوب صغيرة سوداء اللون، تنمو في الغابات يستعملها حتى الكبار للشفاء من فقر الدم، فيشفى الطفل مباشرة، ويتحسن لونه بعد ثلاثة أيام.

4.2.2 إوطط (Iwtat): وهو عبارة عن حب يصيب جسد المريض أو الطفل فيصيبه بتقرحات، ويقشر لحمه ويصيب جميع جسده، فيأخذونه إلى العجوز المتخصص بهذا المرض ليقوم بمداواته، عن طريق حك جسمه بالقارص وزيت الزيتون مخلط بعشبه المرويث، فيشفى المريض بعد مدة قصيرة.

4.2.3. مرض الحسد "التابعة" (Tab3a) والعين (Thitte)أو "تزعط" (Tiz3atte)، حيث يكون نوم الطفل غير جيد، وكذا كثير البكاء، وقلق، وغاضب كثيرا، كما قد لا يأكل ولا ينام، أو تحدث له كوابيس وصراخ في النوم، لن يتغير سلوكه أو يتحسن إلا بعد مقاطعتهم لهذا المرض، من قبل أهل الاختصاص، حيث يستقبلون الطفل، ثم يأخذون خيط يقطعونه على طوله، تسمى هذه العملية أكثيل (Akethil) أي قياس طول الطفل، ثم يقرؤون على ذلك الحبل آيات قرآنية، بعد أن تنتهي القراءة، تسحب الخيط، تتكهن العجوز بنوع مرض الطفل، بأن كان حسد أو عين سواء من رجل أو امرأة أو شيطان من خلال تغير

طول الخيط وعدد العقد التي ستظهر مباشرة فيه، ثم تكرر القراءة حتى يعود الخيط إلى نفس طول الطفل الذي قاسته عليه في المرة الأولى، دليلا على شفائه.

4.3. تفسير كبار السن من (الذكور والإناث) لمرض الأطفال الصغار:

أن مرض طير الليل التي تصيب الأطفال الصغار حسب بعض كبار السن من الرجال والنساء من المنطقة محل الدراسة، هي أسطورة لامرأة كانت عاقرا في الزمن السابق، من كثرة معايرة النساء لها وغضبها من عدم الإنجاب خرجت روحها على شكل طيرة أنثى، تحوم في الليل ولا تخرج في النهار، حتى لا ترى الأطفال الصغار فتأذيهم، فعهدت النساء السابقات بإعطاء وعود اجتماعية لا يجب للأجيال من الأمهات الخروج منها وإلا أصاب أبنائها بالسوء، وعند حدوث ذلك عليهم أن يمارسوا نفس الطقوس التي مارسها أجدادهم في مداواة ذلك المرض، وأي شفاء أخر لن ينفع ويؤدي بالطفل إلى فقدان حياته .

4.4. مسائلة لالة خيرة (شوافة) مختصة في التكهن والشعوذة:

تخبرنا لالة خيرة: ''أن أبائنا الأوائل قدموا "وعدة" (Lwa3da) بمثابة اتفاق يتم من خلاله تبادل القربان والمال والأغنام المذبوحة بين عالم البشر والجن، لعهد صلح وهدنة بينهم، مفادها عدم تعدي الجن على نسب ذلك الجد، وعدم تعدي نسب وأولاد وأحفاد الجد على الجن، وذلك بمجموعة من الشروط والطقوس التي تجري بينهم، وأثناء عدم قيام الأجيال ببعض الطقوس التي عاهدها أجدادهم سواء كانت طقوس ميلاد أو زواج أو حفل أو موت أو مرض موروث، يسيء الجن للجميع أفراد العائلة ويمرض أحد أبنائهم أو كلهم، ولن يشفى حتى يمارسوا الطقوس التي كانت أجدادهم يقومون بها تكريسا لطقوس المتفقة مع عالم الجن''.

كما فسرت لنا لالة خيرة مسألة طيرة الليل الأنثى العاقر: "بأنه طير يخرج في الليل فقط، هو الخفاش، يتعقب دائما الأطفال الصغار، باعتبار أن روح شريرة تدخل فيه''.

4.5. رأي أهل الدين حول الطب الشعبي، المزدوج بأساطير وطقوس الشعوذة والمعتقدات الغيبية:

4.5.1. حول رمزية الاعتقاد بشر بين العصر والمغرب. يقول الشيخ: "يحدثنا النبي صلى الله عليه وسلم، بضرورة غلق نوافذ وأبواب المنازل في فترة قبل المغرب، كونها الفترة التي يخرج فيها الجن والشياطين، ويمكن أن يؤذوا الناس بدخولهم إلى بيوتهم، خاصة لما تكون البيوت غير محصنة بالقرآن والتسمية بالله، كما يؤذون الناس الضعفاء والصغار، والموجودين دون وضوء أو حالة نجسة ''.

4.5.2. التطبيب بالأعشاب والمستحضرات والعطور الطبية التقليدية: " هناك الكثير من الأحجار الكريمة والأعشاب الطبية النافعة، التي خلقها الله لغاية أن تنفع عباده، في الشفاء والتحصين من كل مرض، أمثال ذلك مذكورة في القرآن والسنة النبوية، وأخرى لم تذكر، إلا أنها عظيمة النفع. واكتشفت بعدها من الطب الحديث فحولها إلى حبوب وأدوية ومشروبات أو دهون للجسم المصاب بأنواع الأمراض المختلفة".

4.5.3. وما رأيكم بالقطران الأسود، والعطور والكحل الذي تستخدمه الأمهات للأطفال الصغار ويعتقد أنه من الجن أو تستبعد الجن؟ القطران الأسود والكحل أيضا له مفعوله في الدواء الشعبي التقليدي، فهي مستخرجة من صخور أيضا أعطاها الله لغناها بالمعادن التي يحتاجها الجسم، أما العمل بحد ذاته الذي تقوم به النساء أو العجائز الذي لهم موهبة متوارثة في التطبيب، يمكن أن تكون طرق طبية صحيحة مئة بالمائة، أما الاعتقاد أن لتداوي منها لأنها من طقوس الجن أو الشيطان فهو الخطأ. كما لا ننفي أن للعالم الجني أعشابه وطرقه الخاصة في التطبيب وعمل الشعوذة، فهم يستخدمون العطور ذو الرائحة الكريهة إلى جانب الجيفة والدم والشعر وأمور أخرى مرهبة وغريبة لا تنفع لا دينيا ولا دنيويا، وذلك هو الخطأ الحقيقي.

4.6. رأي الأطباء حول الطب والأعشاب الشعبية التقليدية التي يتلقها الطفل الصغير:

بعد أن طرحنا لمثل هذا السؤال على أحد الأطباء في مستشفى المنطقة أجابنا بتعجرف بالغ يقول: "أنه لا يسمع على مثل هذه الخرافة والشعوذة، وهذه أشياء خطيرة يمكن أن تؤدي بالطفل أن يفقد حياته مباشرة، لأن الأعشاب ذات مفعول أحيانا عكسي على صحة الطفل والإنسان بصفة عامة، وأنها لا يمكنها إفادتنا أكثر حول الموضوع فهي تؤمن بالطب والعلم والأدوية الطبية الحديثة فقط".

في نفس الوقت استطاعت طبيبة أخرى أن تبتسم على إجابة صديقها وتقول: "أنا لدي أولاد وأتذكر أن أمي قامت بمثل ما تذكرين على طفلي، ورغم أني طبيبة إلا أني تقبلتها كجزء من التقاليد الاجتماعية، أضن أن الأعشاب المستخدمة قديما هي أعشاب نافعة، ومنها يستخرج العلماء والمختصين أغلب الأدوية التي نحن نقدمها اليوم للناس والمرضى، وأضن أن الكمية التي تقدم من هذه الأعشاب عليها أن تخضع لمراقبة صارمة من قبل الحكومة، عليهم بوضع مثلا مخابر خاصة لتحليل نوع ألعشبه إن كانت غير سامة مثلا، أو لم يختلط بها شيء سام، فالعشب التي تقدم بدون تقنن ومراعاة لتقاليد ولطب الشعبي، يمكن في وقت ما أن يخطأ الذي يحضرها في شكل ألعشبه فيحضر ألعشبه السامة بدلا من النافعة، أو أن يتم أنباتها في مكان غير صحي ومن تربة متعفنة دون أن يدرك لذلك فيستخدمها، وهنا تحدث الكوارث، أما أكثر من ذلك فالحجامة أو ثيشراط التي تقولين أنها يقومون بها على جسد الطفل

فيمكن أن تكون صالحة، لأن الحجامة فاليابان والصين والعلاج بالإبر استطاعت أن تعزل الطب الكيميائي، فهي نافعة جدا، إلا أن الخطورة في عدم التخصص والمراقبة أيضا.

ولكن نحن نرى أن هؤلاء الناس الذين يقومون بها ذات الخبرة، يعرفون مثلا أين يقومون بوضع الجرح، وما هي كمية المرويث أو القطران التي يقدمونها؟

نعم ولكن ممكن أن يكون هذا سابقا، فالمختصين أو الموهوبين السابقين تعلموا من أجدادهم أشياء كثيرة، ولكن أنتم تعرفون أن المواهب تتناقص والتقاليد تتحرف، ليس ما مارسه الأجداد بشكل حرفي في أيامهم نمارسه الآن، والخبرة التي لديهم لا تتناقل بشكل كلي من جيل إلى جيل، فتتناقص تدريجيا ربما يأتي يوم تتلاشى بصفة مطلقة، لهذا ننوه دائما إلى ضرورة وجود مراقبة ومخابر لتحاليل حتى يتم تشجيع الأشياء الطبيعة ومحاربة الكيماوية، وفي نفس الوقت التقليل من الأضرار والمخاطر الممكنة، أن ألعشبه أو ربما مكونات العشب التقليدية تغيرت مقارنة بيومنا هذا، العالم اليوم مملوء بالغازات السامة التي تطلقها المصانع والسيارات والمستشفيات، ذلك يضر بمكونات الأعشاب حتى يقلل من مفعولها، وحتى كمية الأمطار تناقصت مقارنة بالسابق، وحتى الماء والأمطار التي تسقى به هذه الأعشاب في السابق ويومنا ليس نفسه، الماء والأمطار في السابق نقي وعذب أما اليوم مثل الهواء سام وملوث، وهذه اعتبارات يجب الأخذ بها ثم أخذ الحيطة والحذر منها، فنحن كما ترينا في عصر لم يعد يشبه البيئة التقليدية من كل الجوانب، وهذا ربما ما يستدعى التركيز على وجود بحوث شاملة وشاسعة لتعزيز وتثمين هذا الجانب.

خاتمة:

مكونات الفعل الاجتماعي التقليدي الأساسية كلها، مستمدة من أسطورة تروى "شفهيا يجهل مصدرها وحقيقتها –أسطورة طير الليل المرأة العاقر أو الخفاش" أي قول محسوس، ثم ضرورة " الاعتقاد بها" أي؛ الإيمان بها عقليا ووجدانيا، حيث عادة ما ترتبط هذه التفسيرات للأساطير بما هو ديني "كرمزية العصر والمغرب تبعا لاعتقاد المسلمين أن خروج الجن يكون عند حلول المغرب فهو يمشي في الليل عكس الإنسان، كذا اعتقاد غيبي يتعلق بالسحر وأقوال الكهنة والشعوذة، بعدها ممارسة الفعل الذي يعكس المحسوس والاعتقاد الروحي، عن طريق طقوس وأفعال اجتماعية ملموسة تعبر بتراتيل وحركات تستجيب لنوعية الاعتقاد بنية رفع الهلاك أو استجابة الدعوة.

الأعشاب الطبية التقليدية لها فوائد علمية عظيمة؛ فالقطران مثلا يشفي ألم إنبات الأسنان حسب النظرة الحديثة للأطباء والمختصين ومؤكد حتى علميا، بينما سكان المنطقة يربطونه مباشرة أثناء خروجه أصبته بروح شريرة، وليس بأعراض الإنبات لدى بعض الأطفال.

يعتبر الرجال حسب ماكس فيبر أكثر توجها لتبني فعل اجتماعي عقلي وحديث يتسم بالملموس والمنطقية، على عكس جنس الإناث، اللائي يتمسكن بالتفسيرات التقليدية وإعطاء الممارسات قيم وتحليلات ترتبط بما هو محسوس وعاطفي وما هو غيبي وديني، وهذا ما يعلل نظرة الرجال (الزوار في المستشفى) كذا تحليلات أباء الأطفال المرضى التي تتقيد بما هو حديث عكس النساء اللائي يعتقدن أكثر بما هو من الغيب والجن والشعوذة.

يلعب ارتفاع المستوى التعليمي للأفراد تأثير قوي على اعتقاداتهم بالأشياء الخرافية، فالأطباء والممرضين تفسيراتهم للمرض كانت علمية محضة، مبنية على دراسات وتقارير طبية متوصل إليها حديثا، عكس النساء والعجائز ذات المستوى التعليمي المنخفض كذا رجال الدين والمختصين في الغيب والتكهن الذين يعطون لممارساتهم وشؤون حياتهم تحليلات تتعلق بقوى فوق طبيعية، ويؤمنون بالمعتقدات الدينية والأرواح الشريرة التي تملك قوة تأثير وسلطان على البشر وحياتهم وأولادهم عادة ما يجهل الطب الحديث إيجاد حلول منطقية لها.

يعتبر الطب الشعبي، والأعشاب التقليدية النافعة، من بين المواضيع العلمية التي تستحق اهتمام الدولة الجزائرية، كونها أعشاب طبية وغير مضرة، ويمكنها أن تعتمد عليها من خلال التجارب الوطنية من مطلق الموهوبين الذين يمارسونها فتقوم بتجارب وطنية وإحصائيات حول جدارتها، بعدها تقدم تقارير عالمية حول صحتها وعدم مضرتها، وإنشاء مخابر تنقيتها وتقطيرها بدون إدخال عليها وسائل كيمائية مثل الأدوية الحديثة، مع ضرورة الاعتماد على العجائز التقليدين الذين يقدمون وصفاتها الصحيحة، وجرعاتها اللازمة، وأوقاتها المحددة، فتستثمر منها بفتح معاهد ومستشفيات طبية وطنية، تحافظ من خلالها على الصحة العامة إزاء مخاطر أدوية الطب الحديث، ومن بين المسائل التي يمكن الانتفاع بها: الأعشاب الشعبية، إلى جانب الحجامة التقليدية، كذا الحمامات المعدنية التي تعج فيها منطقة القبائل والجزائر عامة، التي لم يتم التطرق إليها كموضوع اجتماعي.

قائمة المراجع والمصادر:

كوش دنيس كوش. (2007). *مفهوم الثقافة في العلوم الإجتماعية*. (ترجمة: منير السعيداني) بيروت، لبنان: مركز دراسات الوحدة العربية.

أحمد فطاس أحمد، وبن أحمد قويدر بن أحمد. (2018). وظيفة المعتقدات في التوجه العلاجي للمصاب بإظطراب نفسي. *أنثروبولوجيا: المجلة العربية للدراسات والأنثروبولوجية المعاصرة* (العدد السابع)، 07- 24.

منظمة الصحة العالمية. إستراتجية منظمة الصحة العالمية في الطب التقليدي (الشعبي) 2014-2023.

محمد الجوهري. (1978). *الدراسات العلمية للمعتقدات الشعبية* (المجلد الطبعة الأولى). الإسكندرية، مصر: دار الكتاب للتوزيع القاهرة.

حاتم العبيدي. (1444هـ، 2019م). *المعتقدات الشعبية والغيبية بين الحقيقة والخيال*. القاهرة: دون دار النشر.

هاجر بغالية. (2017). العلاج التقليدي لمرض الصرع والفصام إنطلاقا من المخيال الشعبي -مقارنة بين منطقة تيسمسيلت ومنطقة مستغانم-. *مجلة أنثروبولوجيا: المجلة العربية للدراسات والأنثروبولوجية المعاصرة، 03* (06)، 131-82.

ملاحق:

جدول رقم 01: قاموس عربي أمازيغي (اللهجة القبائلية البجاوية).

الكلمة باللغة العربية	نطق الكلمة بالحروف العربية	كيفية نطق الكلمة بالحروف اللاتينية
امرأة	ثامطوث	Thamtouthe
الأم	ثايمات	Thaymate
ابنتها	إليس	Ilisse
الطفل	الطوفان	Eltoufane
صفراء اللون	ذاوراغ	Dhawraghe
مريض	يوظان	Youdhane
يبكي	إترو	Iterou
الأعشاب الطبيعية	إحثواشن	Ihthewachane
الشهيق	أنهاث	Anhathe
جرح فوق الجسد بموس مثل الحجامة	ثيشراط	Thicherate

إنباته للأسنان الأولى الأمامية	ما ديسمغاي ثوغماس ثيمزورا	Ma Dissmghaye Thoghmasse Thimzwoura
رأسه ثقيل	إزاي أوقاروييس	Izaye oukarouyisse
ذراعه أو يده	أفوسيس	Afoussisse
طير الليل	ثايطيط أبيط	Thayrtite E-yitte
الحجر الأسود	أفلاط أفركان	Avlatte avarkane
الأصفر	أوراغ	Awraghe
الحسد، التابعة	ثيزعاط او تابعة	Thiz3ate/ Tab3a
العين	ثيط	Thitte
قياس	أكثيل	Akethil